

الفصل السابع

الدراسة في جامعة دمشق

يتناول الفصل السابع هذا ، فترة الدراسة في جامعة دمشق من ١٩٦٥-١٩٦٦ ويتكون من ثلاثة أقسام : ١- إلى جامعة دمشق ٢- وفاة حمد العطية في السجن ٣- التخرج من جامعة دمشق عام ١٩٦٦

إلى جامعة دمشق

في مطلع عام ١٩٦٥ وصلتني الشهادة والكشف التفصيلي للمواد والتقديرات ، التي تمكن صديقي غيث سالم سيف النصر مشكورا من استخراجها من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة. وكانت تلك الشهادة هي ما انتظره لاستئناف الدراسة الجامعية بعد منعي من دخول مصر.

وحالما استلمت الشهادة وكشف المواد التي اجتزتها في السنتين الاولى والثانية ، بدأت خطوات الالتحاق بكلية التجارة بجامعة دمشق شعبة إدارة الاعمال. وذلك بعد ان توصلت في فترة الانتظار من خلال اتصالات قمت بها ، بأن جامعة دمشق هي الانسب لي ، حيث لم تكن هناك كلية للاقتصاد والعلوم السياسية في أي من الجامعات العربية يمكنني أن أوصل فيها دراسة الاقتصاد السياسي الذي تعلقت به ، حتى أفضلها على مدينة دمشق العريقة وجامعتها العربية. هذا إضافة إلى مناسبة تكاليف الدراسة والتسهيلات المتاحة للطلاب العرب في الجمهورية العربية السورية.

قدمت استقالتي من العمل في شركة المسح الجيوفيزيائي في قطر التي عملت فيها بشكل مؤقت حتى وصول شهادتي من القاهرة. وذلك في شهر مارس عام ١٩٦٥ وحصلت على مستحقاتي التي اضفتها إلى مدخراتي من عملي خلال الشهور الخمسة الماضية ، فتكون لدي مبلغا من المال يمكن أن أعتد عليه في ضوء إمكانية حصولي على منحة دراسية من جامعة دمشق اسوة بالطلاب العرب الذين يدرسون على حسابهم الخاص.

غادرت قطر الحزينة نتيجة لتداعيات حركة ١٩٦٣ ، وبسبب استمرار حيس ناصر المسند وحمد العطية دون محاكمة إلى جانب إبعاد عدد من الشخصيات القطرية. ودعت والدي والأهل والأصدقاء على أمل العودة بعد حوالي عام ونصف عندما حصل ان شاء الله ، على شهادة الدراسة الجامعية من جامعة دمشق. فلم يكن من المنتظر ان أعود في العطلة الصيفية بعد أربعة أشهر وإنما علي بذل جهدي وتركيز ذهني في الدراسة وتجاوز العقبات المنتظر مواجهتها بسبب اختلاف التخصص ، من الاقتصاد السياسي في القاهرة إلى إدارة الاعمال في دمشق ، إضافة الى شح الموارد المالية المتاحة لي.

وصلت الى دمشق حوالي منتصف شهر آذار/مارس ١٩٦٥ وكنت الطالب القطري الوحيد في سوريا. سكنت في فندق صغير متواضع في ساحة المرجه وبدأت اتصالاتي. وعلى ما أذكر كان أول اتصال لي مع علي بن جاسم الغنام الذي سمعت عنه ولم أتعرف اليه شخصيا من قبل ، بالرغم من وجوده في مصر في العام الدراسي ١٩٦٢/١٩٦٣ العام الذي التحقت فيه بالدراسة الجامعية في مصر. وكان اتصالي بأبو حسن عن طريق اصدقاء مشتركين.

وقبل ان أسترسل في خطوات التحاقى بجامعة دمشق ، يحسن بي ان أعرف القارئ بالصديق علي الغنام الذي استمرت علاقتي الاخوية والعائلية به حتى هذا اليوم ، فأبو حسن من أعز الاصدقاء ومن أنقى الرجال.

علي بن جاسم الغنام من البوعيين ، هاجرت عائلته في مطلع القرن العشرين مع عدد من عائلات البوعيين منهم خاطر والبو حسين والغنام ، إلى الجبيل في المنطقة الشرقية بالمملكة العربية. وقد عاد بعض افراد من عائلته وسكنوا الريان عندما بدأ اهل قطر يعودون من الهجرة في خمسينيات القرن العشرين ، ولكن بقية آل غنام لم يعودوا بعد استقرارهم في مدينة الجبيل. و بالمناسبة فأن كلاً من خالد بن عبدالله العطية وخالد بن حسن الثاني هم من أبناء عمات علي الغنام وكان كل منهما يزوره عندما أستقر وأسرته في بغداد حتى عاد منها إلى المملكة العربية بعد الغزو الامريكي للعراق عام ٢٠٠٣.

بدأ علي الغنام العمل مبكرا في شركة ارامكو ، ربما في أواخر اربعينيات القرن العشرين. وهناك حصل على قدر من التعليم في مدرسة الشركة واندمج في الحياة النقابية لعمال شركة ارامكو حتى تم اعتقاله في عام ١٩٥٤ بعد أضرار

عمال ارامكو الشهير ، وأودع علي الغنام مع آخرين من موظفي الشركة سجن العبيد في مدينة الاحساء. وبعد بضع سنوات ربما في عام ١٩٥٦ أطلق سراح عمال ارامكو المعتقلين ومنهم علي الغنام الذي كان يعاني من ضعف بسبب سوء التغذية ومن ازمة صدرية بسبب رطوبة سجن العبيد الذي يقع تحت الارض ، حيث لا يرى من بداخله نور الشمس فضلا عن انعدام العناية الطبية.

واصل علي الغنام الدراسة الليلية بعد خروجه من السجن حتى نال شهادة الثانوية العامة ، ربما في العام الدراسي ١٩٥٨/١٩٥٩. وفي اثناء تلك الفترة زار علي أقرباءه وبعض اصدقائه الذين عادوا إلى قطر من المملكة العربية ومنهم حمد الحميدي الذي كان وبعض زملاء بصدد تأسيس ناد ثقافي قبل ان يؤسس نادي الطليعة ، كما سبقت الإشارة في الفصل الرابع من هذه المذكرات. وأثناء زيارة علي الغنام لقطر تعارف مع عدد من الشباب منهم احمد الخال و نشأت بينهما صداقة ومودة.

بعد حصول علي الغنام على شهادة الثانوية العامة التحق بكلية التجارة بجامعة القاهرة عام ١٩٥٩/١٩٦٠. وبعد أن أنهى أحمد الخال الدراسة الثانوية وابتعث للدراسة في القاهرة ، تواصل مع علي الغنام وسكن معه في شقة المنيل حتى ترك علي الغنام واحمد الخال مصر عام ١٩٦٣ واستقر علي في سوريا بينما ذهب احمد الخال للدراسة في العراق.

عندما وصل علي الغنام إلى سوريا وجد نفسه في وضع غير مجرى حياته. وذلك عندما تم تسريب أسماء أعضاء القيادة القومية لحزب البعث التي انتخب علي الغنام عضوا فيها ، بعد انعقاد المؤتمر القومي السادس عام ١٩٦٣. ومن هنا وجد علي الغنام نفسه قبل ان يتمكن من استقدام زوجته وابنه حسن إلى سوريا ، في وضع لا يستطيع فيه العودة الى المملكة العربية واضطر الى الاستقرار في سوريا وحيدا. هذا ما عرفته عن أبو حسن قبل أن ألتقي به في دمشق ورتبط بصداقة شخصية يأنس اليها كلانا في غربتنا المشتركة.

وإذا كان الاصدقاء المشتركون هم الذين عرفونا على بعضنا البعض ، وكانت الوحدة بعيدان عن الاهل والأقرباء هي التي ربطت بيننا ، فأن استمرار تواصلنا وعمق صداقتنا منذ ان تعارفنا يعود لما يتميز به أبو حسن من صدق ونزاهة ومودة لأصدقائه ، فضلا عن مواقفه التي ارجو ان يتاح لي المجال من خلال هذه المذكرات ، لذكر بعضها في سياق الاحداث.

تقدمت لجامعة دمشق بأوراعي من أجل القبول لمواصلة الدراسة في كلية التجارة قسم إدارة الاعمال في السنة الثالثة . وقدمت الشهادة التي حصلت عليها من جامعة القاهرة وصورة من جواز السفر وصورة مصدقة من شهادة الثانوية العامة ، التي لا يقبل طالب في الجامعات السورية ما لم يقدمها أو يثبت حصوله على ما يعادلها.

وبعد ان قدمت طلب التحاق بالدراسة لجامعة دمشق ، قمت بزيارة لأستاذنا ومدير مدرستنا الثانوية السابق في قطر احمد الخطيب الذي اصبح نقيباً للمعلمين في سوريا ، قبل ان يصبح عضوا في مجلس الرئاسة فيما بعد. رحب بي احمد الخطيب وشعرت انني لن افقد السند لما سمعته منه من كلام طيب ورعاية الاساذ لتلميذه ، وأقترح علي زيارة الدكتور عبد الله عبد الدائم الذي اصبح وزيرا للتربية والتعليم في سوريا فربما احتاج إلى مساعدته.

قمت بزيارة عبد الله عبد الدائم مدير معارف قطر الأسبق والذي تعرفت عليه عن بعد عندما كان في قطر في العام الدراسي ١٩٥٨/١٩٥٩، بعد ان رتب احمد الخطيب موعدا لي مع مكتبه. وجدت من الدكتور عبد الله عبد الدائم ترحيبا واستمعت لبعض ذكرياته عن قطر وتوسمه الخير في شبابها ذوي الطبع والسماة العربية الاصيلة التي عبر عنها في مقال نشره في مجلة الاداب اللبنانية عندما كان مديرا للمعارف في قطر أثناء زيارة قام بها لمدينة الخور والتقى بأهلها وطلابها.

كما شرعت في البحث عن سكن في دمشق أثناء انتظاري للقبول في كلية التجارة ، ووجدت أن أفضل سكن يناسب ميزانيتي ويوفر لي وقتا للتركيز على الدراسة التي جئت من أجلها ، ان اسكن عند عائلة سورية. وبعد بحث لم يطل وجدت حجرة لدى عائلة سورية كريمة في حي القصاع الذي يبعد حوالي ٣ كيلو مترات عن الجامعة ويتيح لي بلوغها

سيراً على الأقدام خلال نصف ساعة. كما ان منطقة باب شرقي وباب توما ومنطقة المسجد الاموي والأسواق القديمة في دمشق تحيط بحي القصاع وعلى مقربة منه.

وقبل أن أستقر في السكن تأكدت من القبول في كلية التجارة الذي لم يطل انتظاري له أيضاً ، حيث قرر مجلس الكلية قبولي في نفس المستوى الذي وصلت اليه في جامعة القاهرة في السنة الثالثة. ولكنه قرر أن أدرس خمس مواد إضافية من مواد السنة الاولى والثانية في كلية التجارة لأنني لم أدرس تلك المواد في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بالقاهرة . كما قرر إعفائي من ثلاث مواد دراسية مقررة على طلبة السنة الثالثة في قسم إدارة الاعمال ، لأنني اجتزت امتحانها في القاهرة. وبذلك وجدت نفسي مطالباً باجتياز امتحان في اثنتي عشرة مادة خلال ما تبقى من العام الدراسي ، ولم يبق منه الكثير وإنما حوالي شهرين فقط قبل بدء الامتحان.

أمام تحدي هذا العبء الدراسي الثقيل في فترة زمنية قصيرة بعد ان فاتتني فرصة حضور المحاضرات طوال العام الدراسي ١٩٦٤/١٩٦٥ ، قررت وضع خطة لتقديم الامتحان في عشر مواد وتأجيل مادتين لتقديمهما في امتحان الدور الثاني او حملهما معي الى السنة الرابعة ، وفقاً لما يسمح به نظام جامعة دمشق. وقد رأيت أن أوجل أصعب مادتين يشكو من عبئهما طلاب كلية التجارة في جامعة دمشق ، هما قانون التجارة البرية وقانون التجارة البحرية.

استلمت كتب المواد الدراسية المقررة من مخزن كلية التجارة وباشرت وحيدا ، دراسة كتب المواد العشر التي قررت تقديم امتحانها في الدور الاول فور انتقالني إلى سكني عند العائلة السورية في حي القصاع/القصور ، جادة الخطيب.

كانت العائلة التي سكنت لديها مكونة من زوج يعمل في الحكومة ولديه محل تجاري صغير يذهب إليه بعد الدوام الرسمي ، وزوجة وعلى ما أذكر خمسة أطفال ثلاث بنات وصبيان أكبرهم في الثانية عشر من العمر. أما الشقة فهي تقع تحت مستوى الشارع ، ولكنها تتمتع بفضاء مفتوح بعرض ثلاثة أمتار يفصلها عن الشارع ويشكل حديقة ومنتفساً لسكان الشقة كما يصل من خلاله نور الشمس ودفؤها.

أما الشقة نفسها ، فإنها مقسمة قسمين الكبير منها تسكنه الاسرة وله باب داخلي يعزل مدخل الشقة و الحجره التي اسكنها والمطبخ و حمام الضيوف الذي استخدمه عن سكن العائلة. وبالتالي فأن حجرتي منعزلة ولكن المطبخ مشترك. العمارة ملك لوالد رب الاسرة التي اسكن عندها ويسكنها أبناؤه ومستأجرون. وأذكر من بين المستأجرين سيدة لبنانية مكافحة أسمها أم وليد لديها ابن وابنة وعلى علاقة طيبة بربة الاسرة التي أسكن عندها. ولا يفوتني أن أذكر بأنني شعرت أنني بين أهلي مرحبا بي مما جعلني استمر في ذلك السكن الذي وجدت فيه فرصة التفرغ للدراسة ، حتى أنهيت دراستي و عدت إلى قطر بعد حوالي عام ونصف من وصولي الى دمشق.

اعتكفت للدراسة في غرفتي بالمعنى المجازي للاعتكاف ، لا أخرج إلا للأكل في المطاعم القريبة خاصة في ساعة الظهر لتناول وجبة الغداء ، غالبا في دكان لحام الحي الذي كان يشوي اللحم بعد أن تشتريه منه ويقدمه مع الحمص والسلطة والخبز للراغبين مثلي في تناول الاكل على عجل. أما العشاء والفطور فكنت أكتفي بما أحضره من الجبن والفاكهة والخبز وما يتاح لي أحيانا من " مونة " المكدوس المحشي بالجوز والمخلل في زيت الزيتون ، المتوفر طوال العام في مطبخ العائلة الكريمة التي أسكن عندها هذا إضافة الى الشاي.

ركزت على دراسة المواد العشر التي قررت تقديم الامتحان فيها. أقضي ايام الاسبوع في حجرتي ، وأخرج يوم الجمعة إلى منطقة الصالحية وأسواق دمشق الحديثة للترويج عن النفس ، وربما أشاهد فلما عربيا جديد في إحدى السينمات او أحضر عرضا في مسرح القباني أو أكتفي بالجلوس في مقهى من مقاهي دمشق المليئة بالحركة والعامرة بالنقاش السياسي وتبادل الرأي بين الجماعات المعتادة على ارتيادها.

وقد دعاني علي الغنام عدة مرات لتناول الغداء في بيت العائلة التي يسكن عندها في حي المزرعة بجانب البنك المركزي او في مطعم من مطاعم دمشق واذكر مطعم بو كمال الذي يقدم صحن الإوزي اللذيذ. وأحيانا يصحبني معه أبو حسن إلى العين الخضراء صباح الجمعة لتناول الغداء ورؤية جمال ريف دمشق و غوطتها في الربيع. نتبادل الحديث حول من يعرفهم في قطر و من أعرفهم من أهل الجبيل وأحوال المملكة العربية وقطر و قليلا ما تطرقنا الى الاوضاع في سوريا التي أحس من حديثه إنها معقدة وأن الامور لا تسير كما ينبغي .

أعود بعد فسحة يوم الجمعة إلى تركيزي على دراسة المقررات الدراسية ، والتي لم يكن يشغلني أمر عن تحدي اجتياز امتحان أكبر عدد من المواد العشر التي قررت تقديم امتحانها بصرف النظر عن معدلات النجاح ، على أن أقدم امتحان المواد التي لن يحالفني الحظ في اجتيازها مع بقية المقررات التي قررت تأجيلها إلى الدور الثاني .

قدمت امتحان الدور الاول بعد حوالي شهرين من وصولي لدمشق ، واجتزت سبع مواد وبقت ثلاث مواد إلى جانب المواد المؤجلة ، عليّ أن أقدمها جميعا في امتحان الدور الثاني بعد ثلاثة أشهر . وغني عن القول أن معدل نجاحي في المواد التي اجتزتها كان مقبولا ، ولم أكن اتوقع أكثر من ذلك لقصر فترة الدراسة وعدم حضوري المحاضرات.

ولا يفوتني أن أذكر ظاهرة شهدتها دمشق منذ شهر حزيران واستمرت طوال اشهر الصيف ، بسبب حركة سياحية كبيره تدفقت فيها العائلات من المملكة العربية على مدينة دمشق وربما مدن أخرى في سوريا ، كانت هذه العائلات القادمة للاصطياف في سوريا تغري العائلات السورية بتأجير مساكنها لمدة الصيف بأسعار مرتفعة لا تقاوم . وكانت استجابة عدد كبير من السوريين في حي القصاع الذي اسكن فيه كما كانت في احياء ومدن أخرى ، استجابة عملية ، حيث قام السوريون بتأجير شققهم على السياح واستأجروا مساكن لهم في المصايف السورية لاسيما الزبداني وبلودان وربما الساحل السوري في كسب وصلنفة. وهذا مؤشر على العقلية التجارية لأهل الشام ، التي جنّت لحسن الحظ ، أتعلم إدارة الأعمال في كلية التجارة فيها. المهم ان العائلة التي اسكن عندها لم تفكر في تأجير شقتها بسبب ارتباط الاب بعمله وتجارته ، وهذا من حسن حظي أيضا.

بعد أن اجتزت امتحان سبع من المواد المقررة تنفست الصعداء كما يقال ، وبدأت أخرج وأرى دمشق وأتعرّف على أحيائها وبالأخص باب توما وباب شرقي القرييين من سكني . وفي باب شرقي الذي يضح بالحياة وينعم بمظاهر الاندماج الوطني بين مسلمي سوريا ومسيحيها ، التحقت بمدرسة لتعليم الطباعة على الآلة الكاتبة لان الطباعة مادة مقررة على طلاب كلية التجارة وعلي ان أجتاز امتحانها .

كما تعرّفت على عدد من الطلاب العرب أثناء امتحانات آخر العام ، الذين شجعوني على الخروج ورؤية دمشق الجميلة . فبدأت أزور مناطق دمشق وريفها الجميل وأنتبه للياسمين الدمشقي وأشم عطره الفواح ، بعد أن رأيت النور في آخر النفق وهدأ روعي من عبء الامتحانات.

وكذلك توفر لدي الوقت لتبادل الزيارات مع الاصدقاء في لبنان وعلى الاخص خالد الريان الذي التحق بجامعة بيروت العربية بعد ان ترك الدراسة في بريطانيا وكذلك حسن نعمه وعبد اللطيف الجابر ، زرتهم في بيروت وذهبنا إلى عاليه وبحمودون وزرنا عدد من المبعدين من قطر في سياق حركة ١٩٦٣ . كما زاروني في دمشق وتبادلنا الاهتمامات والهموم المشتركة وتابعنا أحوال قطر الحزينة.

وفي احدى زيارات الزملاء من بيروت ، رتبنا زيارة لعبد العزيز الشملان الذي يقيم في دمشق ويسكن قريبا من مبنى سكة حديد الحجاز ، موقع فندق الفور سيزن في دمشق اليوم. وعبد العزيز الشملان هو أحد ثلاثة زعماء بحريين نفتهم حكومة البحرين تحت إشراف سلطات الحماية البريطانية على ظهر سفينة حربية بريطانية إلى جزيرة سانت هيلانه في المحيط الهندي أواخر عام ١٩٥٦ .

حدثنا الشملان عن نضال شعب البحرين وعن هيئة الاتحاد الوطني التي وحدت شعب البحرين وتخطت الانقسام الطائفي الذي كان الانجليز يدفعون به في مواجهة الحركة الوطنية في البحرين. كما بين الشملان سبل نجاح الهيئة في أن تجعل من نضال شعب البحرين حركة وطنية وصوتا واحدا ضد الوجود البريطاني. كما مكنت شعب البحرين الموحد من مطالبة حاكم البحرين بإصلاحات سياسية واقتصادية واجتماعية ، حقق شعب البحرين بعض منها وما زال يطالب ويقدم التضحيات من أجل تحقيق بقية مطالبه القديمة وما أستجد إضافة إليها.

ويذكر أن حكومة البحرين على أثر العدوان الثلاثي على مصر في عام ١٩٥٦ قد اعتقلت عددا كبيرا من قيادات هيئة الاتحاد الوطني المعارضة في البحرين ، وقدمت خمسة منهم لمحاكمة صورية حكمت على عبد الرحمن الباكر السكرتير العام للهيئة وعبد العزيز الشمالان وعبد علي العليوات بأربعة عشر سنة سجن ، وعلى ابراهيم موسى من أهل الحد وإبراهيم فخرو من أهل المحرق بالسجن عشرة أعوام قضياها كاملة في سجن جزيرة جدا في البحرين. هذا بينما رأت سلطات الحماية البريطانية بالاتفاق مع حكومة البحرين ان نفي الزعماء الثلاثة ، الباكر والشمالان والعليوات إلى جزيرة سانت هيلانة أفضل لحكومة البحرين وللوجود والهيمنة البريطانية شرق السويس ، من سجنهم في البحرين.

وجدير بالذكر ان المنفيين الثلاثة بعد خمس سنوات من المعاناة في المنفى تمكنوا بمساعدة محامي بريطاني من رفع قضية على حكومة بريطانيا وكسبوا عام ١٩٦١ (١) ، مع الزام حكومة بريطانيا بتعويضهم. ولكن حكومة البحرين مع الأسف ، لم تطلق سراح بقية سجناء الهيئة في البحرين ولم تسمح للمنفيين بالعودة للبحرين ، فأقام عبد الرحمن الباكر في لبنان وعبد العزيز الشمالان في سوريا.

أما بقية من تعرفت عليهم في دمشق فهم زملاء التقيت بهم أثناء الامتحانات ومنهم الزميل ضياء الفلكي من العراق ومن خلاله تعرفت على عدد من طلاب وطالبات البحرين وكانت بينهم فوزية الدلال التي تزوجت ضياء الفلكي فيما بعد وانتقلت معه إلى العراق ومن ثم هاجرا الى بريطانيا ، حيث التقيت بهما مرة أخرى في سياق الإعداد لانعقاد اللقاء السنوي الاول لمشروع دراسات الديمقراطية في اكسفورد عام ١٩٩١. واستمرت صداقتنا العائلية حتى انتقال السيدة فوزية إلى رحمة الله بعد معاناة من مرض عضال اختطفها وهي في عز عطائها الخير ، في المدارس العربية التي تشرف عليها في لندن والنادي العربي الذي تنتشط فيه والمؤتمر القومي الذي نظمت بنجاح بعض دوراته ، فضلا عن مساهمتها وضياء معنا في اللقاءات السنوية لمشروع دراسات الديمقراطية في أكسفورد.

كذلك تعرفت على زميلين من المملكة العربية يُعرفان من قبل كل اصدقائهما باسمي حمود وسعود وكأنه اسم واحد ، لا يذكر الواحد منهما إلا مقرونا باسم قريبه وتوأم روحه الآخر ، وهما سعود الضبعان وحمود السبهان من أهل حائل الكرام. كانا يدرسان أيضا في كلية التجارة ومن المبعدين من مصر أيضا وأصدقاء لعلي الغنام. ربطتني صداقة استمرت مع سعود وحمود بعد عودتهما للرياض. أكلت المرقوق والسليق على أصوله عندهما في دمشق وسافرنا وقضينا سويا مع ضيفهما من المملكة العربية علي القعود ، أياماً جميلة في مصيف بلودان دون ان نرتب لذلك ، وإنما قررنا في نزوة من نزوات الشباب وذهبنا دون اي ترتيب ، حيث تعبنا في الحصول على شقة نسكنها وقضينا الليل في سيارتنا ، ولكننا بروح الشباب بحثنا حتى وجدنا ما يناسبنا وقضينا اياما سعيدة في بلودان العامرة بالمصطافين من سوريا وبقية الدول العربية آنذاك.

ومن زملاء الجامعة تعرفت على محمد زيدان الطالب الاردني الشهم الذي وجدت نفسي معتمدا عليه في الاستشارة حول دراسة المواد الخمس التي علي ان أقدم امتحانها في الدور الثاني ، ولم يبخل علي الصديق محمد زيدان بوقته ومساعدتي في دراسة المواد التي أجتاز هو امتحانها في الدور الاول. وفي السنة الرابعة ، محمد زيدان وأنا ، كنا نقضي اوقات الفسحة بين المحاضرات نذاكر سويا ونساعد بعضنا بعضا في فهم المقررات الدراسية. وقد استمرت صداقي مع محمد زيدان فزرتة في الاردن وتعرفت على والدته الفاضلة ، وما زال تواصلنا مستمرا بقدر ما تسمح به الانشغالات.

بعد استراحة قصيرة من ضغط الاستعداد لامتحان الدور الاول ، عدت ثانية للتركيز على الدراسة والاستعداد للدور الثاني ، حيث كان علي تقديم امتحان في خمس مواد ولا يمكنني ان أنتقل الى السنة الرابعة إلا إذا اجتزت ثلاثاً منها على الأقل.

وفي شهر سبتمبر قدمت امتحان الدور الثاني واجتزت ثلاث مواد من المواد التي قدمت امتحانها وبالتالي اصبح بإمكانني الانتقال إلى السنة الرابعة حاملا معي مادتين على ان أقدمها خلال العام الدراسي ١٩٦٥/١٩٦٦ والذي سوف يكون موضوع القسم الثالث من هذا الفصل ، بعد ان أتوقف عند فاجعة وفاة حمد العطية وأقدم تعريفاً به.

الملاحظات

١ - عبد الرحمن الباكر ، من البحرين إلى المنفى "سانت هيلانه " ، ١٩٦٥ . صفحة ٣٠٧-٤٦٥ .

وفاة حمد العطية في السجن

وصلني خبر وفاة حمد العطية متأخراً ربما بسبب كوني القطري الوحيد الذي يدرس في سوريا آنذاك ، وربما لأن الكتمان أحاط بوفاة حمد ولم يصل النبا إلى الاعلام إلا متأخراً ان كان قد وصل على الاطلاق. لا أعرف كيف علمت به ومتى ولكن الاكيد أنه لم يكن بيدي وحيدا في سوريا ما يمكنني أن أعمله.

في أواخر عام ١٩٦٥ ، فوجئت قطر باستشهاد حمد العطية في السجن وإبعاد ناصر المسند إلى الكويت بعد ذلك بأيام.

وفاجعة وفاة حمد العطية وهو سجين جاءت لتضيف مأساة إلى جو الوجوم والترقب والإحباط الذي أصيب به شعب قطر منذ أن أجهضت الحكومة حركة ١٩٦٣ ، وما تبعها من حزن انتشر بين القطريين نتيجة السجن والإبعاد والفصل والمنع من العمل للناشطين فيها والمتعاطفين معها ، فضلا عن انكسار هجرة المهاندة وعودتهم مضطرين دون تحقيق الأهداف التي نزحوا من أجل تحقيقها. هذا في وقت انحسرت فيه مساحة التعبير العلني عن الرأي حتى بالوسائل التقليدية المتعارف عليه ، ومنيت النفوس بنوع من اليأس الاجتماعي ، كما أصيب المجتمع بحالة من الكآبة ، استمرت لسنوات.

وقبل الحديث عن وفاة حمد العطية ربما يكون من المناسب ان نتعرف على بعض مكونات شخصية حمد العطية التي جعلت منه شخصية وطنية عامة نذرت نفسها للدفاع عن حقوق أهل قطر في وقت اختلت فيه الموازين التقليدية ، وطغت فيه السلطة المطلقة المسلحة بسيف الحماية البريطانية والتمتعة بالعائدات النفطية وما توفره للحاكم من نفوذ في مواجهة المجتمع القطري الضعيف.

حمد العطية هو ابن عبد الله بن عبد الله العطية الذي استشهد في حرب الزبارة عندما كان مع مجموعة من الحرس ، يستغلون استعداد سكان الزبارة لمقاومة الحشود القطرية التي أتت عام ١٩٣٦ من جميع أنحاء قطر لتأكيد سلطة حكومة قطر على مدينة الزبارة . كان في الزبارة آنذاك موالون لحكام البحرين دون ان يوجد فيها قوة بحرينية للدفاع عنها وذلك بحكم القرار الذي حددت فيه سلطات الحماية البريطانية في الخليج الحدود بين قطر والبحرين معترفة بوحدة شبه جزيرة قطر ، كان ذلك عند بداية منح امتياز النفط في كامل شبه جزيرة قطر لموسسة تابعة لشركة نبط العراق ، في مطلع ثلاثينيات القرن العشرين.

وسُمي والد حمد العطية بدوره عبد الله بن عبد الله على اسم والده ، الشهيد عبد الله بن علي بن عمر العطية الذي استشهد وهو محتجز مع عدد من كبار أهل قطر على ظهر سفينة حربية تركية في العقد الاخير من القرن التاسع عشر. ويذكر ان السلطات التركية كانت تسعى لفرض هيمنتها على قطر التابعة آنذاك للخلافة العثمانية ، ولكنهم كانوا يرتابون في ولاء الشيخ جاسم بن محمد الثاني ، ويخشون طموحه. لذلك لجأوا الى الضغط على أهل قطر بأن احتجزوا شخصيات من كبار قبائل قطر وعائلتها منهم احمد بن محمد الثاني شقيق الشيخ جاسم وعبد الله بن ماجد الخليلي ومحمد بن سعيد الكواري وعبد الله بن علي العطية وكبار عائلات الغانم والسودان واسلطة والبوعيين وغيرهم ممن يقيمون في الدوحة أو هم قرييون منها. ويبدو أنه عند قيام الأتراك بنقل المعتقلين من كبار أهل قطر إلى سفينة حربية تركية ، أن عبد الله العطية غضب وقاوم أثناء ذلك فسقط او قذف به الجنود الاتراك في البحر من السفينة ثم أطلقوا الرصاص عليه ليموت شهيدا ، حزننت عليه قطر كلها واحتسبته شهيدا.

من هنا فإن حمد العطية ابن الشهيدين ، وآل عطية عامة وعائلات قطر كافة ، يعتبرون أنفسهم من ركائز قطر الحديثة وممن قدموا التضحيات في سبيل قيام دولة قطر . ومن أجل ذلك كان لآل العطية مكانة اجتماعية قبل النفط شأنهم شأن عدد من عائلات قطر .

ولكن بعد النفط تغيرت الأحوال وأصبح هناك تمييز بين القطريين. ويبدو أن حمد وشقيقه الأكبر خليفة بن عبد الله وعددًا من آل عطية ، لم يقبلوا به بالرغم من الامتيازات النسبية والمكانة التي تمتع بها آل عطية مقارنة ببقية عائلات قطر من غير العائلة الحاكمة. ومن هنا كان حمد العطية الذي برز دوره الوطني منذ عام ١٩٥٦ يعتبر نفسه مدافعا عن حقوق أهل قطر وعلى وعي وصلة بالمد القومي في ذلك الوقت ، حيث عرف بتأييد حقوق عمال النفط وبرز دوره مع شقيقه خليفة في مظاهرات ١٩٥٦ إبان العدوان الثلاثي على مصر ، وتصدر حملة تبرعات ثورة الجزائر في قطر التي شاركت شخصيا فيها ، كما سبقت الإشارة. كما ساعد حمد في تأسيس منظمة سيارات الاجرة الوطنية لحماية العاملين القطريين في النقل العام من مزاحمة شركات النقل الخاصة التي اسسها بعض كبار التجار. وقد كان لحمد حضور إعلامي وكتابات محدودة في الصحف العربية ، سبق ذكر بعضها في الفصول السابقة.

وحسبما سمعته من مشاركين في حركة ١٩٦٣ يبدو ان دور حمد العطية كان محوريا فيها منذ اللحظة التي مهدت لها ، وهي احتفالات الوحدة الثلاثية. تسمع دائما عند الحديث عن حركة ١٩٦٣ ، عن اتصال الناشطين بحمد العطية واللقاءات في مجلس حمد العطية. كما تصدر حمد العطية منصات الخطابة في التجمعات الوطنية ، الامر الذي جعل الحكومة تعتقل حمد العطية قبل ان تعتقل غيره باعتباره من أهم رموز حركة ١٩٦٣. ومنذ اعتقال حمد بدأ تصاعد موجات السجن والإبعاد ، دون ان يطلق سراح حمد العطية او يبعد هو وناصر المسند بعد مرور حوالي ثلاثة أعوام على اعتقالهما ، ومرور أكثر من عامين ونصف على ابعاد زملائهما المشاركين والمؤيدين لحركة ١٩٦٣. ولعل استمرار سجن حمد وناصر لمدة تزيد على عامين ونصف اضافيين ، دون محاكمة او تحقيق معهما ، يعزى الى الخشية من احتمال قيامهما بالمعارضة من الخارج بعد ابعادهما ، نظراً لما يتمتعان به من علاقات عربية وتأيد داخلي.

ولعلنا لو حصلنا على المذكرات التي كان حمد العطية يكتبها في السجن ، لوجدنا أجوبة وافية عن جوانب من حركة ١٩٦٣ ولتعرّفنا عن كُتب على شخصية حمد العطية ودوره في الحركة الوطنية وتصورات له لما بعد السجن . ولكن تلك المذكرات التي اشارت إلى وجودها لولوة المسند في مقال تأييدها لشقيقها ناصر المسند ، لم يطلع عليها أحد حسب علمي غير ناصر المسند. وربما تلك المذكرات لم تزل موجودة بين كتب وأوراق ناصر. فقد كتبت لولوة المسند عن لقاء جمعها بشقيقها ناصر قائلة أنه في " خريف ١٩٨١ في فيلا الهرم بالقاهرة يريني نوتة صغيرة بها أرقام وملاحظات .. النوتة لحمد طلبتها منه فرفض ضاحكا كيف أعطيك نوتة صديقي وأخي .. انه شيء خاص جدا .. نعم خصوصية العلاقة بين ناصر وحمد " (٢) .

وإذا عدت إلى فاجعة وفاة حمد العطية ، فانها وقعت يوم ٣٠ أو ٢٩ نوفمبر عام ١٩٦٥. ويذكر المعتمد البريطاني في قطر في رسالة موجهة إلى المقيم السياسي في الخليج والذي يتخذ من البحرين مقرا له ، بتاريخ ٣٠ نوفمبر ، أن لوك أمر الشرطة قد رفع إليه منذ اسبوع خبر نقل حمد العطية للمستشفى للاشتباه في وجود مشاكل لديه في القلب ، "وقد أكد ذلك أيضا الطبيب المختص بعد الكشف عليه وأوصى ان يبقى حمد في المستشفى لمدة شهرين دون نقله إلى أي مكان آخر." ويضيف المعتمد بتاريخ ٣٠ نوفمبر "الان سمعت أن العطية قد أصيب بسكتة قلبية فاجئية البارحة وتوفي فوراً." ثم يختم رسالته قائلا ، " سلمت جثته للدفن من قبل عائلته في قريته شمال قطر. إذا كان هناك ردة فعل محلية سوف اخبركم." (٣) .

وفي ٥ ديسمبر ١٩٦٥ أفاد المعتمد السياسي في قطر في رسالته إلى المقيم السياسي في الخليج عن أحد ردود الفعل الشعبية على وفاة حمد وأشار إلى صدور عدد من المناشير ، كما ارفق برسائلته ترجمة لبيان صادر عن جبهة النضال الشعبي في قطر National Struggle Front صدر بتاريخ ٣ ديسمبر ١٩٦٥ يدعو إلى إضراب عام يوم ٤ ديسمبر (٤).

وبالإطلاع على الترجمة الانجليزية نجد أن بيان جبهة النضال الشعبي الذي ارسل المعتمد البريطاني ترجمة له إلى المقيم السياسي والإدارة العربية في وزارة الخارجية البريطانية ، قد صدر في صفحتين ووزع كمنشور (٥).

يذكر البيان في مطلع " أن وفاة حمد لن تكون سوى مسمار في نعش الاستعمار والحكام ... ". ويذكر البيان أيضا أن " الطريقة التي أعتقل بها حمد وأصدقائه منذ ثلاث سنوات لم يكن لها أي سبب سوى خوف الرجعية والاستعمار من كل كلمة حق تقال. واستمراره كل هذه المدة دون محاكمة ، ولا حتى استقصاء او تحقيق ، تبين بوضوح وتؤكد أن حمد وزملاءه لم يفعلوا أي شيء يستحق سجنهم. وكذلك فإن وفاته في تلك الظروف (غير الواضحة) الغامضة ، بعد أن كان في صحة جيدة ، تثير تساؤلات عديدة حول سبب وفاته. "

و لا يفوت البيان ان يذكر أيضا من سجن ومن أعتقل وعلى رأسهم ناصر المسند الذي لم يزل مسجوناً في قطر ، ويطالب بحريتهم وعودة المبعدين إلى الوطن. ويدعو البيان في ختامه عمال شركة شل وشركة نفط قطر والعاملين في الحكومة والتجار إلى إضراب رمزي وسلمي عام "غدا يوم السبت ٤ ديسمبر ١٩٦٥" (٥).

وبذلك اضافت وفاة حمد العطية المفاجئة وابعاد ناصر المسند إلى الكويت بعد ذلك بأيام ، الى حزن أهل قطر حزنا جديدا عميقا ، حفر في ضمير القطريين. وظل استشهاد حمد العطية رحمه الله وغفر له في السجن محروما من العناية الطبية ، يحيط به القهر دون مثيب ، من الامور التي لا يتم حتى اليوم الحديث عنها أو تداول أسبابها علانية ، وظلت غامضة لم تجد لها إجابة شافية ولم تنشر الحكومة حسب علمي ، بياناً ولا حتى خبراً رسمياً ، حول أسبابها وملابساتها تنعى فيه الفقيد. وبالرغم من الصمت المميت تجاه وفاة حمد ، فإن الباحث في شبكة المعلومات يجد صورة نشرت عام ٢٠٠٦ لحمد كتب عليها الشهيد ابن الشهيدين وعليها تعليقات حميمة ، معبرة بذلك عن توصيف من قبل بعض ذوي حمد العطية لوفاته في السجن (٦).

وحسب تقديري فإن وفاة حمد العطية كانت بسبب سكتة قلبية عجلت بها ظروف القهر والعزلة في السجن وقلّة العناية الطبية ، نتيجة استمرار حبس حمد وناصر المسند أكثر من عامين ونصف دون محاكمة او اجراء تحقيق ، بعد أن أفرج عن او أبعد من كان معهما من سجناء حركة ١٩٦٣.

و لعل قلّة العناية الصحية بحمد في سجنه ، وهو شخص يبلغ من العمر حوالي ٤٥ عاما ويعاني من مرض السكري ، كان مما أسهم في حدوث السكتة القلبية الأولى في السجن. وربما تكون تلك السكتة قد أصابت حمد في الليل وهو في زنزائنه وحيدا ولم يلحظه أحدا إلا بعد مدة طويلة مما أضاع فرصة إسعافه. وهذا ما قد يشير إليه تقرير الطبيب المختص الذي أتى على ذكره المعتمد والذي قال أن حمد لا يمكن نقله إلى أي مكان آخر قبل شهرين. وربما يكون تقرير الطبيب قد قصد منه أن يقطع الطريق أمام المطالبين بنقل حمد للعلاج في خارج قطر ، بحجة أن صحته لا تسمح بنقله إلى أي مكان آخر. هذه كلها احتمالات لا نملك في الوقت الحاضر وسيلة للتأكد منها إذ لم يفصح سجل السجن وسجل المستشفى عن معلومات تساعد على إظهار الحقيقة.

رحم الله حمد العطية ورحم من فارقتنا من رفاقه وغفر لهم وأطال أعمار من بقى منهم على قيد الحياة.

وفي كل الاحوال تلك هي الأجال بيد الله مهما اختلفت الاسباب.

دفن حمد في مقبرة قرية الخريطات شمال مدينة الدوحة على عجل ، حيث يسكن عمه كبير العطية ناصر بن عبدالله وأبنائه ، ولم يتمكن الكثيرون ممن كانوا يودون حضور صلاة الجنازة من المشاركة فيها. ولا أعلم إن كان قد أقيم عزاء لحمد في مجلسه أم لا ، لإتاحة الفرصة لأهل قطر عامة لتقديم واجب العزاء فيه بالشكل المتعارف عليه في قطر لاسيما لشخصية عامة مثل حمد العطية.

وبذلك طويت صفحة حمد العطية دون ان يعطى حمد - حسب علمي - ما يستحقه من تشييع شعبي أو تقدير معنوي هو جدير به ، أو يتم حتى فيما بعد من أجل إحياء ذكراه العطرة ، القيام ببناء مسجد أو تأسيس مكتبة عامة أو إنشاء جمعية خاصة ذات نفع عام أو مبرة خيرية في قطر تحمل اسم حمد بن عبد الله العطية وتوقف على ثوابه ، أسوة ببعض الشخصيات القطرية. لعل مثل تلك المؤسسة الخيرية تذكر الأجيال به وتشيع الترحم على روحه وهو الذي ملأ

دنيا قطر وشغل الناس فيها باعتباره من ابرز الشخصيات الوطنية في قطر التي دافعت عن حقوق القطريين وعززت الشعور القومي لمدة تزيد على عقد من الزمن.



الشهيد حمد عبد الله العطية : انتقل الى رحمة الله بتاريخ ١٩٦٥ /١١/٣٠



حمد بن عبد الله العطية يظهر في الصورة مع الشيخ علي بن عبد الله حاكم قطر و الرئيس جمال عبد الناصر و احد الشخصيات العربية : في دمشق او القاهرة .



حمد بن عبد الله العطية مع بعض اهل قطر الكرام .



صورة لمتظاهرين قطريين يحملون لافتة كتب عليها "عاشت قطر عربية حرة مستقلة"

الملاحظات

١- علي خليفة الكواري ، تنمية للضياع ! أم ضياع لفرص التنمية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٩٦ ، صفحة ٢٠١-٢٢١

٢- لولوه المسند "ناصر بن عبدالله انتهاء حقبة وبداية أخرى" ، جريدة الراية القطرية ، ٢٠٠٧/٤/٢ .

٣- British Political Agency , Doha, Record of Qatar 1961-1961, 30 November 1965, P, 256

٤- British Political Agency , Doha, Record of Qatar 1961-1961, 5 December 1965 PP 258- 260.

٥- المرجع السابق.

٦- أنظر الرابط : <https://www.flickr.com/photos/16395186@N00/284594121>

التخرج من جامعة دمشق ١٩٦٦

بدأ العام الدراسي ١٩٦٥/١٩٦٦ في شهر سبتمبر ١٩٦٥. ذهبت إلى الجامعة منذ اليوم الاول وحضرت أول محاضرة ، مشتاقاً للدراسة والحياة الجامعية ، توافاً للتخرج بمعدل يفتح لي آفاق الدراسات العليا.

ومن حسن حظي أن عدد طلاب السنة الرابعة بشعبة إدارة الاعمال في كلية التجارة بجامعة دمشق ، كان قليلا نسبيا فلم يتجاوز ٢٥ طالبا وطالبة ، و أساتذة الشعبة من أفضل أساتذة إدارة الاعمال والاستثمار والاقتصاد في سوريا : منهم محمد العمادي الذي اصبح مديرا للصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي الذي يتخذ من الكويت مقرا له ، كما تولى الوزارة في سوريا أكثر من مرة ، وسعيد النابلسي الذي اصبح محافظا للبنك المركزي في الاردن ، وراتب الشلاح الذي كان يدرّس الاستثمار في الجامعة الامريكية في بيروت وفي جامعة دمشق ، وهو من عائلة دمشقية من كبار التجار وأصبح فيما بعد رئيسا للغرف التجارية في سوريا ومحمد شلش الذي كان يدرسنا الادارة الصناعية وغرس فينا حب المنتجات السورية الوطنية وزين لنا أن نلبس مما تنتج. وغيرهم اساتذة كرام علماء في تخصصهم ، أذكر فضلهم ولا أتذكر أسماءهم الكريمة الكاملة ، ربما لأنني لم أتقاطع معهم في رحلة الحياة بعد التخرج ، كما تعرفت أكثر وتقاطعت في الاهتمامات والنشاطات مع من ذكرت من أعضاء هيئة التدريس.

اندمجت في الحياة الاجتماعية للكلية ، كان لدي اصدقاء ومعارف هذه المرة ، بعضهم من الطلاب العرب والبعض الاخر من زملائنا السوريين. شاركت في رحلات الكلية إلى سفوح جبل الشيخ شمال غربي دمشق. زرنا قرى جبلية جميلة وتعرفنا على منطقة الجولان وعين الحمة على ضفاف نهر اليرموك قبل أن يحتلها العدو الصهيوني عام ١٩٦٧.

ولكنني مع الاسف لم أقم بزيارة بصرى الشام وتدمر وحمص وحلب واللاذقية ، ولا أعرف لماذا لم أزر تلك المدن والمناطق التاريخية والسياحية وأمثالها في جنوب وشرق وشمال سورية عندما كنت ادرس في جامعة دمشق ، ربما لارتباطي بالدراسة والذاكرة حتى في يوم الاجازة ، وربما لوجود تكاليف اضافية لاسيما عندما تتطلب الرحلة المبيت ليلة أو أكثر. وقد فوت على نفسي لتلك الاسباب ، فرصة لن تتكرر لزيارة مدينة القدس عام ١٩٦٦ قبل ان يحتلها العدو الصهيوني ، فقد كانت هناك رحلات من دمشق إلى القدس في نهاية الاسبوع تستغرق يومين في حافلات سياحية.

بعد بضعة اسابيع من بداية الدراسة أخذت أرتب أوقاتي على جدول دوام شعبة إدارة الاعمال بالكلية ، والتي تبدأ من منتصف النهار إلى الساعة السادسة مساء. وكنت إلى جانب حرصي على الاستفادة العلمية ، مصمما أيضا على ان أحصل على معدل عال وتقدير في السنة الرابعة يعوض تأثير معدلي المقبول في السنة الثالثة ، على تقديري العام المنتظر في آخر ذلك العام النهائي من دراستي الجامعية.

رتبت أوقات النوم والذاكرة والواجبات على ضوء فترة الدراسة التي حرصت اشد الحرص على وجودي في الكلية خلالها ، والا فأت محاضرة من المحاضرات. وقد استفدت من حضوري ومناقشة أساتذتنا الكرام اثناء المحاضرة ، وبعدها أتبادل مع الزملاء الفهم لما استمعنا إليه في المحاضرات ، وكان عدد طلاب الشعبة ومعرفتهم ببعضهم البعض يسمح بذلك.

قررت أن أنام كل ليلة مبكرا حوالي الساعة التاسعة مساء وأن أصحو من النوم في الساعة الرابعة فجرا ، وبعد أقل من ساعة أكون قد هيأت فيها نفسي ليوم جديد وتناولت إفطاري الذي اعتمد على طاقته حتى موعد وجبة الغداء في الكلية حوالي الساعة الرابعة ، ثم أبدأ المذاكرة في حجرتي وأنا في أفضل حال لاستيعاب المواد الدراسية ، بل والاستمتاع بها.

وقد صادفتني في بداية تطبيق هذا النظام مشكلة الرغبة في العودة الى النوم بعد ان يرن جرس الساعة ، فأقوم بإسكاته وأنا بين النوم واليقظة ، والاستسلام مرة أخرى الى النوم اللذيذ العميق ايام الشباب. وبعد تكرار ذلك لعدة ايام قررت ان أضع المنبه فوق دولااب الملابس لكي لا يسهل علي إسكاته وأنا مستلق على السرير ، اذ يتوجب علي كي

أوقف الازعاج ان أنهض من سريري وأتي بكرسي اعنليه حتى أصل للمنبه فوق دولاب الملابس ، وأوقف رنينه المزعج. وكنت في معظم الاوقات ان لم يكن كلها ، أجد انني قد أفقت من النوم وأصبحت قادرا على إقناع نفسي ان المذاكرة بعد صلاة الصبح خير من النوم.

أبدأ المذاكرة في الخامسة وأستمر فيها حتى بعد العاشرة صباحا ، ثم أبدأ الاستعداد للذهاب إلى الكلية مشيا على الاقدام في رحلة تستغرق حوالي نصف ساعة. اصل الكلية قبل الساعة الثانية عشر ظهرا فأذهب إلى كفتريا الجامعة لشرب فنجان من القهوة وتناول قطعة من الكنافة أو البقلاوة الدمشقية اللذيذة ، واللقاء بمن سبقني من زملاء إلى الكفتريا قبل ان نذهب للمحاضرة سويا في الساعة الثانية عشر ظهرا.

أثناء دوامنا المسائي تتاح لنا فرصة ساعة او أكثر بين المحاضرات أذهب فيها لتناول وجبة الغداء في كفتريا الجامعة. ووجبة الغداء في كفتريا الجامعة هي وجبتي اليومية الدسمة الوحيدة . فالأكل طيب و لذيذ والسعر مناسب ، حوالي ليرتين ونصف لوجبة كاملة فيها الشورية والمقبلات الشامية والصحن الرئيسي والحلو الذي يكون في الغالب صحن من المهلبية التي ما زلت افضلها على سائر الحلويات العربية ، وهذا السعر مناسب لميزانيتي التي تعتمد بشكل رئيسي على منحة شهرية من الحكومة السورية قدرها ١٥٠ ليرة سورية في الشهر ، انفق منها ٧٥ ليرة إيجارا شهريا للحجرة التي اسكنها ، والباقي إضافة الى مبلغ لا يزيد عن مائة وخمسين ليرة أخرى من مدخراتي ، أخصصها لمواجهة مصاريف الاكل والمصاريف الشخصية الأخرى.

و حسب ما أذكر اليوم ، فانني لم اشعر بالعوز ولا فرطت في حسن هندامي ومظهري ولا تأخرت عن القيام بواجب الضيافة الضرورية تجاه زملائي في الكلية أو من يزورني من بيروت وغيرها من الاصدقاء القطريين أو غيرهم. وذلك بفضل الله وما قام به اصدقاء ومعارف في قطر أثناء العطلة الصيفية من جمع تبرعات شخصية أرسلوها الي مع طلبة قطر في لبنان. وقد جاءني بها عبد اللطيف الجابر مشكورا إلى دمشق وفاجئني بما يحمله من مبلغ نقدي لم أتوقعه. وهذه أول مرة يقوم أصدقائي في قطر بدعمي ماليا والتعبير عن تعاطفهم بهذه المبادرة التي كان للجانب المعنوي فيها أثر كبير على نفسي في غربتي وظروف حرمانني من الحصول على بعثة دراسية من حكومة بلدي ، كما شكل الجانب المادي رصيذا اضافيا لمدخراتي ، ولكنه لم يؤثر على مستوى مصروفاتي أو عادة احتفاظي بالقرش الابيض لليوم الاسود.

بعد انتهاء المحاضرات والاستفادة من اوقات الفسحة المتاحة بين المحاضرات في مراجعة دروس اليوم في كفتريا الكلية او مكتبة الجامعة مع الزملاء وبالأخص الزميل محمد زيدان ، أغادر الكلية حوالي الساعة مساء مشيا على الاقدام إلى السكن.

وفي الطريق الى المنزل أصادف بائعين على عرباتهم يبيعون فاكهة الموسم حسب المواسم الواضحة في دمشق من صيف وخريف وشتاء وربيع ، لكل موسم بل ربما لكل شهر فاكهته فمن التين الشوكي إلى تفاح الزيداني الاخضر إلى الخيار الصغير الذي يذر عليه الملح ويوكل مثل المكسرات ، وكذلك اللوز الاخضر فضلا عن المشمش والخوخ والكرز والتين في الربيع. وكنت أحرص على الوقوف عند عربات بعض الباعة واشتري من فاكهة الموسم هذه ، أكل بعضها في الطريق وأخذ منها لأطفال الاسرة التي اسكن عندها ولفطوري في الصباح الباكر.

بعد العودة الى حجرتي أكون مهيباً للنوم المبكر الذي استعد له بعد ان أحضر لنفسي في مطبخ العائلة الكريمة سندوتشاً من شرائح الجبنة الصفراء ، أسخنه على دفاية الغرفة (الصوبا) في الشتاء واستمتع بأكله مع شرب فنجان من الشاي الذي أسخن أبريقه أيضا على حرارة الصوبا في الشتاء وأنا أتدفأ بحرارتها قبل إطفائها استعدادا للنوم. بعد هذه المراسم المسائية في ختام يوم مثمر ، أسلم نفسي قبل الساعة التاسعة مساء للنوم الذي يداهمني بعد قراءة قصيرة على السرير ، لأستيقظ على رنين المنبه الذي يقطع علي حلاوة النوم العميق المستمر ، في الساعة الرابعة فجرا. ومن ثم أصارع نفسي للنهوض من السرير والوصول الى المنبه فوق دولاب الملابس لأسكته وأبدأ من جديد مع إشراق يوم جديد.

مر علي العام وأنا منهمك في الدراسة التي لم ينقصها ويقطع انهماكي فيها لبعض الوقت سوى أمرين :

أولهما : فاجعة وفاة حمد العطية ، وما آل إليه الحال في قطر بعد وفاة حمد وإبعاد ناصر المسند إلى الكويت بعد ذلك بحوالي أسبوع ، وهي الامور التي تعرضت لها في القسم الثاني من الفصل السابع هذا .

وثانيهما : اختفاء علي الغنام ثم اعتقاله وسجنه على أثر انقلاب ٢٣ فبراير/ شباط ١٩٦٦ الذي قام به بعض أعضاء اللجنة العسكرية ضد القيادة القومية وحكومة الاستاذ صلاح الدين البيطار .

علمت بذلك الانقلاب في يوم حدوثه حوالي الساعة السابعة صباحا عندما مر من أمام البيت الذي اسكن فيه سليم حاطوم قائد المغاوير في الجيش العربي السوري ، تصحبه قوة في طريقها إلى مركز مدينة دمشق. وقد خرجت لرؤية ذلك الرتل من السيارات العسكرية فوجدت جارنا وشقيق صاحب البيت الذي أسكن حجرة فيه وأسمه حسين وهو ملازم في القوات المسلحة ، عائدا من الشارع وفي يده مشط رشاش سقط من احدى السيارات التي ترافق سليم حاطوم في طريقه لوسط مدينة دمشق. وعلمت منه أن تلك القوة من المغاوير مشاركة في انقلاب عسكري ضد حكومة صلاح البيطار التي تويدها القيادة القومية.

ساورني الخوف على مصير علي الغنام لما كنت أسمعه منه من حديث حول صراعات بين أعضاء اللجنة العسكرية في القيادة القطرية على السلطة واعتراض فريق منهم على حكومة صلاح الدين البيطار التي يقولون عنها بأنها يمينية محافظة. لم يكن لدي ما أستطيع عمله سوى الاستماع للراديو يعلن أخبار الانقلاب وبياناته والجلوس في البيت فليس هناك اليوم فرصة للذهاب الى الكلية كالعادة.

وفي المساء اتصلت بعلي الغنام عند العائلة التي يسكن عندها فلم أجده وعلمت أنه خرج منذ الصباح الباكر ولم يعد. وفي مساء اليوم التالي فوجئت بوجود سائق علي الغنام في حجرتي فجأة بدون استئذان ، فقد اندفع إلى حجرتي حالما فتح ابن صاحب الشقة الباب له ، فسألته خيرا ان شاء الله ، أين علي ؟ ، اتصلت به عند العائلة فلم أجده. ورد علي قائلا أنني جئت أسألك عنه هل هو عندك او تعرف مكانه . قلت له لا وبعد ان تلفت في الحجرة التي لا يمكنها أن تخفي شيئا فيها تركني وخرج. خرجت خلفه فوجدت حوالي اربعة أشخاص في ثياب مدنية ينتظرونه عند الباب ويخرجون معه من مدخل البناية . هنا علمت أن أجهزة الامن تعرف علاقتي الشخصية بعلي وظنت بأنه مختبئ عندي فنصبوا له كميناً يصحبهم سائقه الشخصي.

عدت إلى الكلية في اليوم الثالث من الانقلاب ، ولاحظت تجمعا للطلاب أمام الكفترية يهتفون ، فسألت عن السبب فقيل لي بأنهم يحتجون على رمي طالب سوداني بعد قتله خنقا من أعلى مبنى المدينة الجامعية حيث يسكن الطلاب من خارج دمشق وبعض الطلاب العرب. شاركت معهم في الهتاف والاحتجاج على قيام الانقلاب واغتيال الزميل السوداني ، تدافعت مع المتدافعين ، ولكني انسحبت حالما تم التفريق بين فريق مؤيد للانقلاب وآخر معارض ، كلهم من طلاب جامعة دمشق.

بعد عدة أيام علمت من الاسرة التي يسكن عندها علي الغنام أنه قد تم اعتقاله واتصل بهم من أجل تزويده بملابس من حجرته ، وأنهم قد اخذوا اليه الملابس حيث يتم حجزه في فيلا في وسط دمشق ، اعطوني عنوانها. وفي اليوم التالي ذهبت في الصباح إلى العنوان الذي يحتجز فيه علي الغنام. قابلت الضابط المسئول وقدمت نفسي بأني قريب لعلي الغنام وأود مقابلته للاطمئنان عليه وطمأنة أسرته في قطر والمملكة العربية ، وبعد انتظار لم يطل سمح لي بدخول الفيلا التي كانت تستخدم للضيافة الرسمية وقابلني علي وعرفني على صلاح الدين البيطار و جبران مجدلاني وعدد من أعضاء القيادة القومية المحجوزين معه.

أوصاني علي بأن أبلغ أسرته وأن أطمئنهم عن طريق أقاربه في قطر وأصدقاء مشتركين. كما أوصاني ان أتابع الاتصال بأسرته فقد تطول مدة احتجازه. وقد طالت بالفعل بعد نقل المحجوزين الى السجن واستمرار سجنهم هناك حتى هزيمة ١٩٦٧ ، حيث أبعده على أثرها علي إلى الجزائر دون جواز سفر أو وثائق ومكث هناك في ظروف صعبة حتى تمكن من الانتقال إلى فرنسا ومنها إلى العراق في أواخر عام ١٩٦٨. وفي هذه الفترة العصبية من حياة الرجل الصبور على الغنام تبادلت الرسائل معه في سوريا عندما كان في السجن حيث تهرب رسائلنا وكان يكتب لي باعتباراه مريضا في المستشفى. وفي الجزائر وفرنسا نتراسل من خلال عناوين مؤقتة يحددها علي حسب تنقلاته.

عدت مرة أخرى إلى التركيز على الدراسة فمر ما تبقى من شباط ولحقه أذار ونيسان وأنا منهمك في الدراسة والذاكرة وفق البرنامج الذي سرت عليه منذ بداية العام الدراسي. ثم بدأ الاستعداد لامتحان نهاية العام ، فاستعددت للامتحان النهائي في السنة الرابعة بشعبة إدارة الاعمال في كلية التجارة بجامعة دمشق. وكان علي تقديم عشر مواد من مقررات سنة رابعة ومادتان حملتهما معي من السنة الثالثة.

قدمت الامتحان وحالفني الحظ في جميع المواد وكان تقديري جيد جدا في السنة الرابعة. وتقديري العام في السنوات الاربع جيد بسبب ظروف دراستي في السنة الثالثة ونتيجة لانتقالي من القاهرة إلى دمشق وتغيير موضوع التخصص.

حمدت الله على تخطي العقبات واجتياز الدراسة الجامعية في أربع سنوات كما هو منتظر في الظروف العادية. وبذلك تحقق الهدف الاستراتيجي الذي وضعته لنفسه منذ أن أغلق نادي الطليعة وأصبحت الدراسة لي ولزملائي هي العوض.

قمت قبل عودتي الى قطر عن طريق مطار بيروت ، بزيارة ودعت فيها زملائي وأصدقائي في بيروت ، كما ودعت من قبل أصدقائي في الشام وعلى الاخص الاسرة التي قضيت في بيتها كل المدة التي قضيتها في دمشق وكانت كريمة معي شعرت فيها انني بين أهلي. وحز في نفسي أنني لم أتمكن من زيارة علي الغنام منذ ان نقل الى السجن فاكنتيت بالرسائل المتبادلة بيننا حالما عدت إلى قطر ، لأواجه بقية مسلسل الإقصاء من حكومة قطر واضطر الى فتح برادات الأمل موضوع الفصل الثامن من مشروع مذكراتي.

علي خليفه الكواري

الدوحة ٢٠١٤/٧/٢١ (٢٣ رمضان ١٤٣٥)

